وهو يرتاض بذلك وزوجه العجوز التي جاوزت الستين ، ويروض أحفاده على حياة الجنود ، والغربيون يعودون أطفالهم صغاراً ما يضطرون إليه كبارا ، مجارين في ذلك غرائز الطبيعة ؛ لأنا نشاهد الأولاد يركبون العصيّ استعداداً لركوب الجياد ، ونرى البنات يكثرن الوقوف أمام المرآة تعوداً لما يعملنه وهنّ أمهات

إن حياتنا الشرقية ركود وكسل ، والحياة الغربية حياة نشاط وعمل ؛ فالجماعة منا إذا خرجوا إلى ظاهر المدينة للتنزه جلسوا على ضفة بردى أو النيل أو الفرات ، وأخذ بعضهم يغلي شراب الجاء[1] ، وشرع الآخرون في الحديث أو الغناء ، وإلى جانبهم مضطجعون ، أو على الآرائك متكئون ؛ وإذا خرجت رفقة من الأوربيين إلى التنزه أخذوا في الارتياض بأنواع الرياضات والألعاب ، فهذا يلاكم وذا يصارع ، وهذا عدّاء وذلك وثاب ، وهذان فريقان يجرّان الحبل ، أو يتقاذفان الكرة بالراحة[2] أو القدم ؛ فالتنزه في عرفنا للطعام والشراب أو الاضطجاع أو السماع ؛ وفي عرف الغربي للعدو والوثب والصراع ، والحركة يراها بركة ، والتواني والسكون هلكة

ثم التقينا على العين بإخوان لنا من رجال العراق ، فتجاذبنا أطراف الأحاديث إلى أن تحدثنا عن الانقلاب العراقي الأخير فحمدنا الله على حدوثه ، ولم يستشر فساد أو تعم فتنة ، وعلى إرساله لإنقاذ الموقف الخطير ذلك الرجل الاداريّ الحكيم ، والجندي العربي الصميم « السيد جميل المدفعي » الذي قضى حياته في الدفاع عن حوزة العروبة ، والذي أجمت الكلمة لسلامة دواعي صدره على الثناء عليه وعلى محبته ، والاعتصام في هذا المأزق الضيق بعروته ، ثم ودّعنا إخواننا بعد أن تزودنا من شرب الماء عبا ، ونزلنا راجعين إلى حمّانا ونحن تمتع العيون بسواحر المناظر من وادي حمّانا الذي غنى باسمه من قبلنا لامرتين ، وكان منظر الصنوبر الأخضر على الجبال أروع هاتيك المناظر وأبدعها وأشدها للعين بهراً وللقلب سحراً ، فقد جعل كل من أصحابي يترنم ببعض الأغنيات ، وجعلني أرتجل الشعر مغنياً بهذه الأبيات :

أوادي حمّانا سقيت وأخصبت ... ربُاك مغاني الحسن والحسنات

شهدتُ لقد شاهدت فيكَ صنوبراً ... يمدّ ما في القلبِ من حسراتِ
وخلت الغواني في الجبال حواملاً ... مظلاّتهن الخضر والنضراتِ
وسربَ نعام أبصر السيل هادراً ... فأسندَ مرتاعاً إلى الهضباتِ
هل المسكُ من هاماتك الخضر فائحٌ ... أم المسك من غاداتك العطراتِ
لطبتَ أيا وادي الصنوبر وادياً ... وبارككنّ الله من شجراتِ!

« دمشق » عز الدين التنوخي

(١) وهو الشاي كما ذكره الامام البيروني في كتاب الصيدنة

(٢) أي التنس ، والراحة أخذها الانكليز من العربية فقالوا racket (أنظر معجم دوسترالكبير)

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أعمق الساعات صمتاً

ماذا جرى لي يا صحابي ؟ لقد سادني الاضطراب فأضعت هداي وأراني مندفعاً بالرغم مني إلى الرحيل والابتعاد عنكم وآسفاه أحيل ، على زارا أن يعود إلى عزلته ، غير أن الدب يرجع إلى مغارته كئيباً حزيناً . ماذا جرى لي ومن ترى يضطرني إلى الرحيل ؟

إنها (هي) مولاتي الغاضبة ، لقد كلمتني فأعلنت لي إرادتها وما كنت ذكرت لكم اسمها حتى اليوم ، هي أعمق ساعاتي صمتاً وهي نفسها مولاتي القاهرة ، كلمتني أمس

وسأقص عليكم ما جرى فلا أخفي عنكم شيئاً كيلا يقسو قلبكم علي وأنا أفاجئكم برحيلي عنكم

أتعلمون ماهي خشية من يستسلم للكرى ؟ إنه الدهر يستولي على الانسان من رأسه إلى أخمص قدميه ، لأن أحلامه لا تبتدي ما لم تنسحب الأرض من تحته

إنني أضرب لكم أمثالا ، فاصغوا إلي :

أمس عند أعمق الساعات صمتاً خلت الأرض من تحتي وبدأت أحلامي

وكان العقرب يدب على ساعة حياتي في خفقانها ، وما كنت سمعت من قبل مثل هذا السكوت يسود حولي ويروع قلبي

وسمعتها (هى) تقول لى ، ولا صوت لها : إنك تعرف هذا يا زارا فصحت مذعوراً عند سماعى هذه النجوى وتصاعد الدم إلى رأسى فعادت هي تقول ، ولا صوت لها : أنت تعرف هذا يا زارا لكنك لا تعلنه.

فانتفضت وأجبت بلهجة المتحدّي : — أجل إننى أعرف هذا ولكننى لا أريد أن أعلن ما أعرف

فقالت (هى) ولا صوت لها : أصحيح أنك لا تريد ؟ لا تخف سلك وراء هذا التحدّى يا زارا

فأخذت أبكي وأرتعش كالطفل قائلا : ويلاه ، أريد أن أبرح ، ولكن هل ذلك بامكانى ؟ أعفنى من هذه المهمة لأنها فوق طاقتى

فقالت،ولا صوت لها : وما أهميتك أنت يا زارا قل كلمتك وتحطم

فقلت : أهى كلمتى ما يهم ، فمن أكون أنا ؟ إننى أنتظر من أجدر منى باعلانها وما أنا أهل لأصطدم بالمنتظر فأتحطم عليه

فقالت ، ولا صوت لها : وما أهميتك أنت ما دمت لم تصل إلى ما أريده من الانضاع ؟ وما أقسى ما يتشح به الانضاع ، أصلب جلده .

فقلت : لقد تحمل جلد انضاعى كثيراً ؛ فأنا ساكن عند ارتفاعى ولم يدلني أحد بعد على ذراه العاليات ، ولكننى عكنت من سبر أغوارى ومعرفتها .

فقالت ، ولا صوت لها : أى زارا ، وأنت المعدّ لنقل الجبال من مكان إلى مكان . أفما يوسعك أن تنقل أغوارك وسهاويك أيضاً ؟

فقلت : لم تنقل كلمتى الجبال بعد ، فإن ما قلته لم يبلغ حتى آذان الناس ، لقد أتيت إلى العالم غير أننى لم أتصل به بعد .

فقالت ، ولا صوت لها : وما يدريك ..؟ إن الندى يتساقط على العشب فى أشد أوقات الليل سكوتاً .

فأجبت : لقد هزأ الناس بى عند ما اكتشفت طريقى ومشيت عليها ، والحق أن رجلىّ كانتا ترتجفان إذ ذاك ، فقال لي الناس : لقد ضللت سبيلك يا زارا ، بل أصبحت لا تعرف أن تنقل خطاك

فقالت ، ولا صوت لها : وأية أهمية لسخريتهم ؟ لقد تخلصت من الطاعة يا زارا فوجب عليك أن تأمر الآن . أفلا تعلم أن من يحتاج الجميع إليه بأكثر من احتياجهم إلى أى شيء إنما هو من يقضى فى عظائم الأمور ؟

إن القيام بالكبائر صعب ، وأصعب من هذا أن يأمر الانسان بها . إن ذنبك الذي لا يغتفر هو أنك ذوسلطان ولا تريد أن تحكم

قلت : ليس لى صوت الأسد لأصدر أوامرى

فقالت — كأنها تهمس همسا — : لا يثير العاصفة إلا الكلمات التى لا صوت لها ؛ إن من يدير العالم إنما هى الأفكار التى تنتشر كأنها محمولة على أجنحة الحمام . عليك أن تسير يا زارا كأنك شبح لما سيكون يوماً فى آتى الزمان ؛ وهكذا تندفع فى سبيلك إلى الأمام وأنت تتولى الحكم

فقلت : إن الخجل يتولانى

فعادت تقول ، ولا صوت لها : عليك أن تعود طفلا فيذهب خجلك عنك ؛ إن غرور الشباب لما يزل مستولياً عليك لأنك بلغت الشباب متأخراً ؛ ولكن على من يريد الرجوع إلى طفولته أن يتغلب على شبيبته

واستغرقت فى تفكيرى وأنا أرتجف ، ثم عدت إلى تكرار كلمتي الأولى قائلاً : لا أريد . وعندئذ ارتفع حولى صوت قهقهة مزقت قلبي وصدعت أحشائى

وقالت (هى) للمرة الأخيرة : أى زارا ، إن أثمارك ناضجة ، غير أنك لم تنضج أنت لأثمارك ، فعليك إذن أن تعود إلى العزلة لتزيد فى قساوتك ليناً

وعاد الضحك يتعالى ، فشعرت أنها انصرفت عنى (هى) وعاد الصمت يسود بأعمق مما كان حولى ، أما أنا فبقيت منطرحاً على الأرض سابحاً فى عرق

والآن ، وقد أعلنت لكم كل شيء أيها الصحاب، فهأنذا أعود إلى عزلتى وما أخفيت عنكم شيئاً . أرحل عنكم بعد أن علمتكم أن تعرفوا من هو أشد الناس تكتماً ومن يريد أن يكون كتوماً

واأسفاه ، أيها الصحاب ، إن لدي ما أقوله لكم أيضاً ، ولدي ما أبذله ، فلماذا لا أبذله الآن ؟ ألعلنى أصبحت شحيحاً ؟

وما نطق زارا بهذا حتى أرهقه سلطان حزنه لاضطراره إلى الرحيل ، فبكى منتحباً وما تمكن أحد من تعزيته ، ومع هذا ما أرخى الليل سدوله حتى ذهب زارا وحده تحت جنح الظلام متخلياً عن صحبه

(يتبع) فليكس فارس

٩٠٣